بسم الله الرحمن الرحيم

شعر عبدالله باشعالم

د.سالم احمد الحمداني
استاذ الأدب الحديث
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

توطئة :

هوعبدالله أفندي بن محمد جلبى العمري ، ولد سنة ١٢٠٨هـ ، ونشأ نشأة دينية ، ودرس في معاهد الموصل،وتضلع فى علوم كثيرة منها : الفقه والأدب والقرآت السبع .

سافرالى استانبول ، وظهر فضله فيها ، فأنعم عليه السلطان بلقب باشعالم ، أي (رئيس العلماء) ثم عاد الى الموصل وتولى الأفتاء فيها ، ودرس في مدارس عديدة .
توفي سنة ١٢٩٧هـ بالموصل ، ودفن في جامع العمرية فيها .

وله شعر حسن جمعه محمود افندي الجبقجي ، نسخة منه عند حفيده سامي باشعالم ، واخرى في خزانة محمد رؤوف الغلامي وثالثة عند العقيد المتقاعد امين محمد ورابعة فى المجمع العلمي العراقي ، وخامسة في خزانة اسماعيل حقي فرج . والنسخة التي اعتمدناها في الدراسة.مصورة عن نسخة المجمع العلمي العراقي(١) وللشاعر مواويل وزهيرات منوعة(٢).

(١) ينظر في ترجمته : مدارس الموصل في العهد العثماني ـ سعيد الديوجي /٢٢
مجموع الكتابات المحررة في مدينة الموصل ـ سعيد الديوجي /٥١
جوامع الموصل في مختلف العصور ـ سعيد الديوجي /٣٦
ديوان الموشحات الموصلية ـ محمد نايف الدليمي /١١٩
فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف بالموصل ـ سالم عبد الرزاق احمد ١٨٨/٦
(٢) ينظر : مخطوطات الأدب في المتحف العراقي : أسامة النقشبندي وظمياء عباس / ٣٩١

وقد تصدر التدريس في الموصل في دار القرآن وفي مدرسة الحاج زكر المشهورة .
وممن درس عليه في دار القرآن صالح الخطيب الموصلي الحريني .
وقد اشتهر شاعرنا بعلمه وتدريسه على الخصوص أيام ولاية الجليليين وبعدهم .

الموضوعات :

على الرغم من الكثرة الكاثرة لشعراء القرن الثالث عشر ، فان شعرهم ظل في طبيعته الفنية وفي معانيه وأفكارة وموضوعاته ، يحتفظ بمشكلة العقم ، ومن هنا راح (يجري وراء شعر فترة الانكسار الحضاري ، فيقلده ويسيء تقليده ويجري وراء مضامينه فتعجزه القدرة) (١) الفنية عن تأكيد مضامين الشعر الانسانية . ولذلك فقد استسلم شعر هذه الفترة (للموضوعات التقليدية من مديح ورثاء وغزل ووصف . وحين حاول ان يعبر عن حياة العصر في الموضوعات السياسية والاجتماعية ، خانته القدرة ، الاّ في القلة القليلة من الشعراء الذين تركوا قصائد نادرة فيها ملامح فنية أو تجربة شعورية تجاوزت مستوى قصائد العصر) (٢) .

وشاعرنا عبدالله باشعالم هو واحد من شعراء هذا الجيل الذين وقفت بعض قصائدهم تحدى الصورة المتهرئة الواقعية للقرن الثالث عشر ، بتجاوزها للموضوعات التقليدية التي لهى بها الشعراء أنفسهم تزجية للوقت ، أو إرضاء للسلاطين والولاة ، أو للعبث بطبيعة الفن الشعري نفسه .

وعلى الرغم من ان شعر عبدالله باشعالم قد احتفظ بالكثير من الموضوعات الشعرية لعصره ، كالوصف الجامد والغزل المفتعل والمدح والفخر والرثاء والتاريخ الشعري ، الاّ ان الذي احتفظ له بالسبق ، واشار اليه بالحضور المتميز ، هو نقده للحياة الاجتماعية والسياسية . وما يتصل بها من طبائع الأخلاق ، وهو ماأكسبه خصوصية واضحة ، وارتفع بموضوع القصيدة نفسها الى مستوى الجودة فناً وموضوعاً وفكرة ومعنى . وعلى الرغم من ممارسة بعض شعراء عصره لهذا الاتجاه ، كعبد الغني الجميل وعبد الغفار الأخرس وعبد الباقي العمري ، الاّ أن هذا الاتجاه في شعره لم يكن مسألة عارضة أو قصيدة تفلت من عقال الموضوعات التقليدية كما هو الحال عند هؤلاء الشعراء حسب ، بل وجدناه لديه موضوعاً يشكل ظاهرة فنية ، ويحمل في مضمونه الانساني تياراً واقعياً يجسد كل

---

(١) الادب العربي الحديث : سالم الحمداني وفائق مصطفى /٢٧ الموصل ١٩٨٧

(٢) نفسه /٢٧

ماكانت تضمره نفس الشاعر الثائرة من تحدٍ لتلك الصورة المتخلفة التي كان الناس قد استسلموا لها في حياتهم وهي صورة تعبر عن روح الاستكانة والضعف والهوان والاستخفاف بالقيم البشرية التي فقدها مجتمع ذلك العصر . لذلك كان التعبير عنها من لدن الشاعر يشكل ظاهرة ايجابية تجسد يقظة غير مألوفة للفن الشعري في القرن الثالث عشر .

ولسنا نشك أن هذه النفثات التي أطلقها الشاعر كانت تجسيداً لمعاناة صعبة وتصويراً لا لمشاعره حسب ، بل لمشاعر الملايين التي لم تكن تمتلك حسّها الأنساني ، ولم تعرف طعماً للحرية الشخصية . وربما لم يطلق الشاعر صيحته هذه في وجه الحكام ، الاّ بعد أن استعصت عليه الوسيلة وبعد ان وقر في نفسه الاّ مناص من التعبير .

كان الشاعر رجل دين ورئيساً لعلماء الموصل ، وهذا الموقع كان يوحي آنئذٍ بالموقف المعروف لهذه الطبقة من المجتمع وهو التأييد للسلطان وللوالي . وربما كان الشعراء من غير العلماء كذلك ،بل كان الناس معظمهم كذلك،لجهلهم مباديء الحرية ، وبعدهم عن الثقافة والمعرفة ، وما كان يجري في العالم الأوربي من صراع بين السيادة والحرية من جهة وبين الحكم المتفرد من جهة أخرى .

ولذلك فان نقد عبدالله باشعالم للسلطان وللوالي — وهو رئيس لعلماء عصره وشاعر معروف في مجتمعه يعد مسألة تلفت النظر حقاً ، لأن شعراء العصر وعلماءه كانوا من أشد المؤيدين للسلطان الذي قال الشاعر في نقد حكمه وتعرية رجاله وتصوير فساد سلطته والعبث بمقدرات الاسلام الذي كان السلطان يعتمده وسيلة في حكم المسلمين :

أرجوك تفريج الكروب من العنا ... وخروجنا من ربقة الأسجان

أمسيت بين الترك متروكاً ... ومسجوناً بدار خلافة السلطان

والشاعر يسمي طبيعة الحكم (خلافة السلطان) .

وهي نفثة قومية غير مقصودة لأن رجال الدين بالذات لم يفرقوا آنئذ بين عرب وترك في ظل أسرة الأسلام ، وربما كان الحرص على الأسلام نفسه ، هو الذي دفع الشاعر الى ذلك بدليل الأبيات التالية التي يقول فيها تصويراً لما آل اليه الدين الحنيف على أيدي الحكام الأتراك ، ونقداً لحال الأمة التي وصلت الى درجة شديدة من الفساد والتهريء . يقول :

مابين قوم بالنفاق طباعهم مجبولة والظلم والعدوان
قوم لقد تركوا الشريعة بينهم وتفاخروا بالفسق والعصيان
ياعزة الكفار بين ظهورهم وبذلة الأسلام والأيمان
عكفوا على شرب الخمور فضيحوا فيها عقولهم مع الأذهان
جبلت على حب الرياء قلوبهم وتخلقوا بالكذب والبهتان
لم يبق للاسلام رسم بينهم كلا ولاللدين من اركان
كم جامع قد خربوه وعمروا بيع النصارى عابدي الصلبان

.....

الذل للعلماء أضحى بينهم والعز للنسان والرّهبان
تركوا االشيوخ وأمّروا صبيانهم ويل لهم بامارة الصبيان
ياارحم الرحماء أنت وعدتنا أني أجيب العبد حين دعاني

.....

فرج الهي كربنا والطف بنا كرما بجاه المصطفى العدناني (١)

وعلى الرغم من ان هدف الأبيات كان حرص الشاعر على الأسلام ودينه ، لأن معظم معانيها أنصبت على ماآل اليه أمر المسلمين ورجال الدين واماكن العبادة ، من اهمال وسوء معاملة الا أننا نلحظ وبشكل واضح ، تصويراً دقيقاً لواقع الحكم بخاصة . كما ان في أفكارها نضجا يتضح في نقد السلطة لاهماله تقصي حال المجتمع ، ومحاربة الفساد ، وفيها ايضاً اتهام للسلطة الحاكمة آنذاك بالبعد عن المسؤولية الشرعية التي تتضح في تولية الصبيان أمور الحكم ، كما تبدو صورة التدني الخلقي للحكام والناس والتي تتضح في التجاوز على الشرع الأسلامي ممثلة في شرب الناس للخمر وتطبعهم بالرياء وتخلقهم بالكذب والبهتان ، وفي اذلال العلماء المسلمين ايضاً .

ولاشك في ان هذه القصيدة تعبر عن الدقة في رصد واقع الأمة وحكم السلطان التركي ، كما ان في افكارها نضجاً واضحاً وموقفاً جريئاً يخرج على الصورة المعروفة لمجتمع القرن

(١) الديوان /ورقة ١٩٤ — ١٩٥

الثالث عشر الهجري . ومواقف الشاعر في نقد السلطة الحاكمة ، مواقف جريئة لاتعرف المهادنة ، لانها — كما يبدو لنا — تنطلق من حرصه على الأسلام وغيرته على دينه ودفاعه عن حوزته ، ولذلك لم يقف هذا النقد على السلطان حسب ، امتد الى الولاة الذين ابتلي بهم الناس — على حد قول الشاعر — حتى لقد وصفهم بالجزارين الذين يذبحون شعوبهم كما يشير الى تناقضهم فيقول :

قد بلينا بأمير ظلم الناس وسبّح (١)
فهو كالجزار فينا يذكر الله ويذبح

ويعاتب الشاعر زمانه لأنه يعلي سافلاً ويدني عاقلاً فيقول :

لئن علاّ زمان السوء قوماً أسافل ماعليه بذا عتاب
فقد يعلو الذباب على أسودٍ وقد يعلو على الذهب التراب

وواضح أنه يصف زمانه بالسوء ، ويتخذ صورة تشبيهية جميلة يمثل بها لواقع حال الحكم . وفي نقده يشير الى مبدأ الحرية الذي يتصارع مع واقع الحياة ، والذي تؤول الاساءة اليه في نهاية الأمر الى الخراب فيقول :

دع الدنيا تعاند كل حرٍ فعاقبة الأمور الى الخراب (٢)

ويؤكد أن كل مايصدر عنه في مواقفه ونقده لايسبب الحرص على الوطن وحسرة عليه ، ولا حزناً على فقدان أصدقائه وأحبائه ، وانما هو الغيرة على الاسلام والاسف على ماانتهى اليه من ذل وهوان :

والله ماحسرتي حزناً على وطني ولا على فقد أحبابي وخلاني
ولا على غيرة لكنما أسفي على مذلة اسلام وايمان (٣)

ويؤكد في أكثر من قصيدة على ضياع أهل الفضل وعلى سيادة أهل اللؤم ويلقي اللوم في ذلك على الزمان فيقول :

---

(١) الديوان /ورقة ٥٤٠
(٢) نفسه /ورقة ٥٣٨
(٣) نفسه /ورقة ٣٢٦

اذا الأيـام قد نصبت لئيمـــا على التمييز وارتفع اللكـــاع
زمان لأعاد الله فيـــــه أناساً للقبائـح قد اشاعـوا (١)

ولا يكتفي الشاعر في تأكيد موقفه الفكري الناضج بنقد الحكام حسب ، بل ينظر الى المجتمع كله حكاماً ومحكومين نظرة شاملة واحدة ، ولذلك يدقق النظر في واقع الناس وأخلاقهم وصلاتهم مع بعضهم البعض،ويخرج من كل هذا بموقف يرى فيه انهيار القيم وتدهور الاخلاق وضعف الايمان وضياع المقاييس الصحيحة . من ذلك قوله :

ارى الجود والانصاف والصدق والوفا لهم في الأنام اسم وليس لهم جسم(٢)

ولا تخلو هذه المواقف النقدية من الصدق الشعوري الذي يبدو في نفس الشاعر ألمـاً دفيناً وحسرات على ضياع القيم ، وفقدان الاصدقاء والانصار والأحباب فيقول :

مالي على الخطب من حرّ يساعدنـي ولا خليـل حمى ظهري بميـــدان
اين الصديق الذي كنت أعهـــده عند النوائب أرعاه ويرعانـــي
واين عمدة أصحابي فقد فقـــدت وفقدت الملمات انصاري واعواني(٣)

ويبدو في الأبيات معاناة الشاعر الواضحة ، كما يتضح أن مواقفه هذه كانت تعود عليه بالمشاكل التي لايجد فيها صديقاً أو خليلاً يذود عنه الظلم ويخفف عنه الشكوى منه .لذلك تردد في شعره الحديث عن الصداقة والاصدقاء والزمان والدنيا . ومن ذلك قوله :

وعاشرت ناساً وجربتهـــــم فلم أر فيهم صديقـاً خليـــلا
وما الحر الاّ امرؤ يرتضـــي حمامـاً ولم يرض عيشاً ذليلا (٤)

والشاعر في شعره رجل مبادىء. لايهمه خذلان صديق أو تخلي خليل ، ولذلك ترددت في شعره لفظة (الحرّ) خلال الحديث عن نفسه .

---

(١) الديوان /ورقة ٢٩٢
(٢) نفسه /ورقة ٤١٩
(٣) نفسه /ورقة ٣٢٠
(٤) نفسه /ورقة ٢٨٦

ويتكرر في شعر عبدالله باشعالم مواقفه النقدية لمجتمع عصره، وتتكرر معها المعاني المطلوبة الصحيحة وهي الصدق والمعروف ومكارم الطبع :

مكارم الطبع في ذا الوقت قد فقدت وليس فيها فتيٌّ في الناس موصوفا
لم يبق للصدق فيما بينهم أثر وليس عندهم المعروف معروفا (١)

ونقد الشاعر لمجتمعه أقوى من نقده للحكام، ويبدو أن صلاته بالناس لم تكن على قدر من المودة والمحبة ، لذلك كثر في شعره الشكوى من الناس وخصوصاً الاصدقاء ، بله الاخوان والاشقاء ولذلك فقد الثقة بمعظم من كانت له صلة بهم ، يقول :

لعمري لم أثق أبداً بشخص وان أضحى شقيقي أو رفيقي
فقد عم النفاق الخلق طراً فما يُدْرَى العدو من الصديق (٢)

وشاعرنا في رصده صورة المجتمع ،رجل دقيق، وضع في شعره كل ماآلت اليه اخلاق الناس من مثالب وعيوب ، فلم يترك نقيصة الاّ وتتبعها ودقق في فاعليتها وعابهم فيها، وشكى فعلهم لها . من ذلك اشارته الى غدر الناس في زمانه وبعدهم عن الوفاء وحفظ الذمام . يقول ،

وللغدر ابناء هذا الزمان يميلون بالطبع ميلاً جزيلاً
يرون الوفاء لهم سنة وحفظ الذمام عليهم ثقيلا (٣)

ويكرر بين الحين والحين أن سبب شكواه ومواقفه النقدية هو حرصه على الاسلام ، ولذلك فأنه يفضل الموت على الحياة ،لما يراه من انقلاب الموازين في مجتمعه، ولا شك أن لتصدره مقام رئاسة العلماء أثراً في هذه المواقف . يقول :

زمان مات فيه شرع طه زمان فيه ماأحلى مماتي (٤)

ويتكرر هذا الموقف العقيدي في نقده الاجتماعي ونقده للحكم ، كما يتكرر معه لوم الزمان الذي يعبر عنه أحياناً (بالفلك الدوار) . من ذلك تعبيره بقوله على سبيل المثال (شريعة

---

(١) الديوان /ورقة ٥٦٨
(٢) نفسه /ورقة ٥٧٢
(٣) نفسه /ورقة ٥٧٧
(٤) نفسه /ورقة ٥٦٢

المصطفى هدت قواعدها) و (على زمان هوان المسلمين به) و(للعذر أبناء الزمان) و (ارى الدهر في أصله فاسد) . وغيرها من العبارات التي تتشابه في المعنى وتختلف في التعبير . وتكثر هذه المعاني في شعر الشاعر ، وتنتشر انتشاراً واضحاً حتى صارت تشكل في ديوانه ظاهرة تعلو على كل الموضوعات التي الفناها في شعر القرن الثالث عشر ، تلك الموضوعات التي لايختلف فيها شاعرنا عن غيره ، الاّ أنه يتميز بهذا الموضوع تميزاً ملحوظاً يرفع من قيمته الموضوعية ، كما يسمو عنه في افكاره الناضجة .

* * *

يحتل الوصف في ديوان عبدالله باشعالم حيزاً واسعاً ، فهو يسيطر على معظم موضوعات شعره ، ويتداخل معها تداخلاً شديداً حتى يكاد يصير جزءً من العديد من موضوعاتها كالغزل والخمرة والفخر وغيرها . وبهذا تمتلك قصيدة الوصف في شعره نوعاً من الشمولية اذ هي تتسع لكل هذه الموضوعات .

وعلى الرغم من ان الوصف في هذه الفترة يعتمد (على الكد والبهرجة والاصباغ الخارجية ، لأنه لم يتحرر من وطأة المعاني القديمة الموروثة) (١) الاّ أنه في شعر عبدالله باشعالم يمتلك شيئاً من الدقة لأنه يتتبع ابعاد الصورة الطبيعية تتبعاً شديداً يكاد يتفوق فيه على معظم شعراء عصره ، ويتفوق عليه أيضاً في خصيصة أخرى ينفرد بها دون شعر الآخرين ؛ ذلك أنه يمتلك الدقة في تصوير بيئته التي عاش فيها ، وعكس الكثير من الموروث الشعبي ، وما يتصل به من عادات وتقاليد وطرق تفكير ، بل يكاد يعكس حركة المجتمع وطبيعته الاجتماعية والعقلية .

وليس هذا فحسب ، فقد توافر وصفه لمدينة الموصل على رصد طبيعتها رصداً يمتلك الشمولية والدقة ، إذ وصف مافي هذه المدينة من خصوصية في عادات اهلها وتقاليدهم واعيادهم ، وطبيعة مدينتهم واحتفظ وصفه بأسماء الأماكن الدينية كأضرحة الانبياء والاولياء والجوامع ، وبأسماء الأماكن التي كان يقصدها أهل الموصل في فصل الربيع بخاصة ، تزجية للوقت واستراحاً من عناء العمل .

كما احتفظ بالكثير من أسماء الازهار والنباتات والفواكه والخضر التي لها خصوصية عند اهل الموصل وذكر العديد من المظاهر الدينية والاجتماعية والعلمية وغيرها مما يمكن

(١) الوصف وتطوره في الشعر العربي : ايليا حاوي /٢٥٠

أن يقال ان مثل هذه القصائد تعكس الموروث الشعبي لأهل الموصل، كما انها تحتفظ بصور الفولكلور الشعبي وما يتصل به حتى صارت هذه القصائد وثيقة مهمة تحتفظ لمدينة الموصل واهلها بالكثير مما ضاع أو كاد يضيع من أذهان الناس وتصورهم .

يقول في وصف مدينته التي لايخلو فيها هذا الوصف من الأثر النفسي والمعنوي :

وعلى جنان الموصل الخضراء قـــد أمسى فؤادي في لظى النيـــران
فارقتها كرهاً فرافقنـــي بهـــا وجدي وفارقني كرى أجفانـــي
يـــاما أحيـــلى مائهـــا وهـوائها وربيعهـــا الزاهـــي بكـــل مكـــان

ويلاحظ هنا العنصر الوجداني والنفسي المترتب من مفارقة الموصل وأحبابه ، كما تلاحظ الاشارة الى طبيعة المدينة الخضراء ، وهي طبيعة تحتفظ بها المدينة بخصوصية معروفـة ، وبها سميت (أم الربيعين) ، ويقول مشيراً الى بعض الأماكن التراثية ، ومعدداً لكثير مما أصبح منسياً أو مهملاً لدى كثير من اهلها في الوقت الحاضر (كقضيب البان)و(السيب) :

عمر تقضى بالمسرة والهنـــــا بيـن الأحبة في قضيب البـــان
لم أنس فوق السيب في اطرافهـــا بتسلسل وتباعـد وتـــدان (١)

ويذكر (الايوان) الذي يعد جزءاً مهماً من دار السكن في الموصل ، ولا يزال الكثير من البيوتات القديمة يحتفظ به .

وأطوف في تلك الوهاء تنزهـــا وأعـود في فـرح الى الايـوان

ويشير الى جامع (يحيى أبو القاسم)الأثري المشهور :

وانظر هناك الى مقـام قد حوى يحيى أبا القسم العظيم الـــشان(٢)

والاشارة إلى هذه الاماكن الدينية الأثرية المقدسة ، يعكس طريقة التفكير الديني التي تعتمد الوسائل الصوفية التي شجعها سلاطين العثمانيين .

---

(١) السيب وقضيب البان اماكن مشهورة في مدينة الموصل وموقعها قريب من المكان الذي عاش فيه الشاعر ودفن .

(٢) لا يزال مزار (يحي ابو القاسم) ماثلا في شمال مدينة الموصل .

ويذكر الشاعر من الاماكن المعروفة في الموصل (تل عاشق) ،ويربطه بمفهومه الذي يعكس صلات الحب بين المحبين فيقول :

وبتل عاشق حبها كم عاشق فيه مع المعشوق يصطحبان (١)

ولا ينسى ذكر الكنائس القديمة :

وكناسها فيه الكنائس والظبا ومراتع الآرام يقترنان

ويشير إلى وادي سحلة فيقول :

ونظرت وادي سحلة قد ديجت أرجاؤه بشقائق النعمان (٢)

ويسمي من الاماكن التي لا تزال إلى الآن معروفة مشهورة في هذه المدينة ،وهي الجوسق والدندان وشط الحصا القريب منها فيقول :

وأزور بستان السماح وما حوى والجوسق المعروف والدندان
وأمر في شط الحصا وأرى به حصباءه كالدر والمرجان (٣)

وفي قصيدته الوصفية هذه،ظاهرة تعكس طرائق معينة لزراعة بعض الخضراوات في الموصل ومنها (البطيخ والخيار والقرع)الذي يزرع عادة في موسم الصيف على ضفاف نهر دجلة ليفيد من مائه وخصوبة أرضه ؛ وتسمى هذه الاماكن المزروعة (الشواريق) ولايزال معمول بها لحد الآن .

ويذكر مع هذا ايضاً (ورد القديفة) ، ويشير اشارة دقيقة إلى لمعانه المعروف، وهو ما يؤكد عنصر الدقة في وصفه :

وأقيم في وادي العوينا بالهنا وأشم زهر حديقة النعمان
أسفي على تلك الشواريق التي تزهو بخضرتها على الخلجان

---

(١) تل عاشق: لم اعرف مكاناً بهذا الاسم في مدينة الموصل

(٢) وادي سحلة: يقصد الشاعر وادي سحيلة الواقع شمال مدينة الموصل .
وشقائق النعمان: ورد يكثر في فصل الربيع فقط في مدينة الموصل .

(٣) الدندان والجوسق وشط الحصا: اماكن مشهورة في المدينة قريب بعضها من بعض

ورد القديفة عند شاطي شطها يحكي نجوم الافق باللمعان
اهاً على بطيخها وخيارها أوقرعها المطبوخ بالرمان

والبيت الاخير يعكس احدى طرق الطبخ التي يتبعها اهل الموصل، وذلك باضافة الرمان إلى القرع المطبوخ ليضفي عليه حموضة .

وليس هذا فحسب ،فقد وصف شاعرنا واحدة من أهم واشهر أماكن الاستجمام في عهده ، ولا تزال كذلك،تلك هي ضاحية (حمام العليل) المشهورة بمياهها المعدنية التي تعد بها مصحاً مشهوراً في العراق،ولا تزال كذلك . وقد نجح الشاعر في وصفها وصفاً دقيقاً حين اشار إلى أهم اماكنها المعروفة، من مثل (تل السبت) كما اشار إلى اماكن السكن التي كانت ولا تزال مقصد الناس يبيتون بها،اذ لم تكن في عصر الشاعر بيوت حديثة يقصدها المستجمون ، وكذلك إلى ما يشتهر به عناصر حماماتها المعدنية من مثل (عين زهرة وعين فصوصة والانجان) . يقول :

يا طيب حمام العليل ومائها الشافي من الأسقام والادران
عين بها عين الحياة لسابح لا سيما من غط بالانجان (١)
بنيت عرازيل الهنا من حولها وقبابها قد رصعت بجمان (٢)
وكذاك تل السبت عند صعوده كم فيه نيل مقاصد وأمان (٣)

ولم ينس الشاعر ذكر موطن ولادته ونشأته ، وهي منطقة (باب الجديد) (٤) التي تعد حتى الآن من الأحياء القديمة المشهورة في الموصل ، فيقول :

---

(١) يقصد بالعين، منابع المياه المعدنية الحارة ومنها (عين زهرة وعين فصوصة وغيرها) ومثل ذلك (الانجان) وهو حوض كبير تخزن فيه المياه المعدنية الحارة .

(٢) العرازيل: هي منازل المستجمين الذين يقصدون الحمامات المعدنية من خارج حمام العليل وقد طمست معالمها في الوقت الحاضر

(٣) لا يزال بعض السذج من النساء يقصدن (تل السبت) لتحقيق امنياتهن في الحب وهي عاده اجتماعية تعكس التفكير الاجتماعي منذ عصر الشاعر حتى الان .

(٤) (باب الجديد): المنطقة التي حط بها العمريون منذ نزوحهم الى العراق قادمين من الحجاز ولا يزال معظمهم يسكنها حتى الان .وقد دفن في جامعها الشاعر.

إن جـزت في بـاب الجـديد فقف على ربـع الأحبـة وقفـة الحيـران
قـل للأحبـة قـد تـركت محبـكـم ونفـسي رمـاد السقـم بـالبحـران

وهذه الاماكن كما يبدو ،قد ارتبطت بذكريات الحب ، فهي اذن ترتبط بعنصر نفسي أياً كان بعده ونوعه ، وهذا معناه ان هذه الربوع لم تأت في وصفه نابية معزولة عن عواطف الشاعر ومشاعره ومواقفه النفسية والعاطفية ، وهي لذلك تمتلك قدراً من الصدق وحرارته .

ويتحول الشاعر من جنوب مدينة الموصل إلى شماله ليذكر بعض المواقع المشهورة ، مثل منطقة الدملماجة فيقول :

قـف نخـو وادي الـدملمـاجـة لحظة واسكـب دمـوع العيـن والاجفـان

وسبحان الله كيف يعيد التاريخ نفسه ، لتصبح (الدملماجة) مرة أخرى مكاناً شهيراً وتسكب في ذكرها الدموع ولكنها الآن دموع الحزن على شهداء الحرية والمباديء الذين دفنهم الشيوعيون في هذا المكان بعد قتلهم وسحلهم ، في حين يسكب الشاعر دموعه على ما ضاع من حبه وحين تذكره .

ومما تنفع الاشارة اليه ، ذكر الشاعر لأماكن العبادة واضرحة الأولياء وما يتصل بها من الجوامع القديمة المشهورة في المدينة ، كجامع (النبي يونس) القائم في مدينة نينوى الأثرية وجامع النبي شيت القائم وسطها . فيقول :

شيـت النبـي عليـك الـف تحيـة مـادامـت الأفـلاك بـالـــدوران
ريح الصبـا ان جزت تربة نينـوى ودخلت بالحجرات والايـوان
فاقرا السلام على ضريح قد حـوى ذا النون ذا الافضـال والعـرفان

القصيدة طويلة تبلغ مائة وثمانية وعشرين بيتاً ، يستند معظمها إلى هذا الوصف كما يقوم بعضها الآخر على النقد الاجتماعي والسياسي . ولذلك اكتسبت خصوصية متميزة بالنسبة لقصائده الوصفية الأخرى ، وهذه الخصوصية تأتت من مضامينها الاجتماعية والانتقادية والعقلية . ومما توافرت عليه من الموروث الشعبي وما يتصل به . مما عكس صورة مدينة الموصل واحتفظ لها في شعر عبدالله باشعالم بهذه الخصوصية .

واذا كان هذا الوصف يعد في نظر بعض النقاد وصفاً نقلياً فان فضيلته تأتي من دقة وصحة تشابهه (١) كما تأتي في رأينا وفي هذه القصيدة بالذات مما يصوره من عادات وتقاليد وتفكير. ولذلك يمكن أن يعد وثيقة اجتماعية وانتقادية .

أما القسم الأعظم من وصفه فقد انصب على الطبيعة التي تبدو مدينة الموصل محوراً لها ، لما حباها الله من سحر طبيعتها ورقة هوائها وعذوبة مائها وتركيب ارضها من الجبال والوهاد والسهول ، ومما تتوافر عليه هذه الطبيعة المركبة من الوان كثر في وصفه كثرة تفوق كل حد. وكثيراً ما يطلق على الطبيعة (حديقة وروضة وبستان) يذكر ما فيها من ازهار والوان وروائح. وهذه الكثرة في الوصف طبعت قصائده بطابع التكرار في الالفاظ والعبارات والمعاني والصور ، حتى يصير هذا التكرار عيباً فيها .

وجدير بالملاحظة ان قصائد الوصف عند عبدالله باشعالم تتميز بطول النفس ، وربما كان السبب أن شعر الوصف لديه لا يقتصر على وصف الطبيعة حسب ، بل يتخلله وصف للخمرة حتى يكون هذا وذاك سبيلاً لوصف مشاعره في الحب ولذلك توزع غزله مابين قصائده الوصفية وقصائده التي اقتصرت على الغزل حسب .

ومن هنا صارت قصائد العمري الوصفية تتسع لكثير من المعاني ، منها ما وقف على وصف الطبيعة الحية بكل ابعادها من ورود ، وما تحتوي عليه من الوان وعطور وأشكال ، وهذا ما يتصل بالطبيعة الأرضية ، ويتشابك معه طبيعة الانهار والبحار وما يتوافر فيهما من لؤلؤ ومرجان وزبرجد وعقيق وعسجد وغير ذلك .

ويتصل بهذا وذاك الطبيعة الكونية من شموس وأقمار ونجوم ورياح وبروق ورعود وغيرها .

وبهذه الابعاد الثلاثة التي يتألف منها وصف الطبيعة عند الشاعر تشكل قصائده الوصفية كلاً متكاملا متعدد الأطراف متسع الحدود . يقول في احدى قصائده الوصفية الطويلة :

وحديقة أضحت قدود حسانها تحكي معاطفها معاطف بانها
ازهارها قد فككت أزرارها اذ شقت الأكمام من اردانها

(١) الوصف وتطوره : ايليا حاوي /١١

وغصونها رقصت سروراً حينما غنت عليها الورق في الحانها
خضر الحرير كست رباها بعد أن خلعت على الأشجار من قمصانها
وثغور زهر الاقحوان ضواحك لما بكتها السحب من اجفانها
والشمس ترشف من ثغور أقاحها خمر الندا فتهيم في جريانها
وعرائس الازهار نقطها الندى في لؤلؤ يعلو على تيجانها
وقد استعار الورد حمرة خده اذ لاح يزهو في خدود حسانها
وشقائق النعمان فيها مزقت اثوابها حزناً على نعمانها
فكأنما قصب الزبرجد حملت هاماتها الكاسات من عقبانها
والجلنار مجامر من عسجد بزمرد نيطت على خرصانها
والورد قد كشف القناع وأصبحت أكمامه تنشق قبل أوانها
وخدوده احمرت حياء عندما رأت اختلاف الزهر في الوانها

وعلى مدى اكثر من خمسين بيتاً يختلف التعبير عن مظاهر الطبيعة فتكون (الازهار والغصون والحديقة والأوراق والأشجار والورود)وتتصل بها الوانها واشكالها وحالاتها وما تزّين به مثل (فككت الازرار ، شقت الأكمام ،رقصت الاغصان ، ضحك الاقحوان ، نقط الندى) وما يتصل بهذا من الوان وزينة تضفي عليها رونقاً وسحراً مثل خضر الحرير ، السحب تبكي ، الشمس ترشف ، اللؤلؤ يعلو التيجان ، حمرة الخد ، شقائق النعمان ، قصب الزبرجد ، الجلنار مجامر من عسجد وزمرد ، احمرار الخدود) .

ومثل هذا يتكرر مرات ومرات ، ولكنه تكرر لاتجد فيه شيئاً من أثر نفسي ، وانما هو وصف نقلي كما ذكرنا يعتمد البهرجة والالوان والاشكال كما تقع في العين وتسمع في الأذن ، ولا تتجاوز ذلك إلى أعماق الشعور ودفقات العواطف والمشاعر .

وقد وضع احد الدارسين هذا الوصف في عداد (شعر الرصف) وهو وصف (يرتكز على تكديس الصفات ورصف الألفاظ دون العناية بالتفاعل معها) (١) .

---

(١) الوصف في الشعر العراقي :محمد حسن علي مجيد /٧٣/ رسالة دكتوراه بغداد ١٩٨٥

والقصيدة كما ذكرنا لاتكتفي برسم لوحة الطبيعة الميتة حسب ، بل تتجاوزها الى رسم لوحة الخمرة ، التي يسميها بالياقوتة المذوّبة في الفضة ، اشارة الى لونها يقول :

ياقوتة قد ذوّبت في فضة صبت من الكاسات في فنجانها

كما يشير الى تركيبها ، فيذكر انها معصورة من وجنة المحبوب :

فكأنها معصورة من وجنة المحبوب حيث وزاتها كوزانها

والى فعلها في النفوس ، فيذكر كشفها للاحزان ، وتخفيفها للهموم ، وتحقيق المسرّات لشاربيها :

تجلي الهموم وتكشف الأحزان اذ جلب المسرة والهنا من شأنها

والى نوعها ، فيذكر أنها قديمة معتقة :

قد عتقت دهراً فجددت الهنا حتى خفت زمنا على ندمانها

ويكرر فوائدها الصحية للمرضى من بكم وصم وعمي ، وكذلك لمرضى الحب . فيقول :

لوشمت الأموات عرف شميمها ارواحها ارتدت الى ابدانها

والصم لو سمعت خرير كؤوسها اسماعها عادت الى اذهانها

والبكم لورشفت سلافة دنها نطقت صريحاً في فصيح لسانها

والعمي لو نظرت الى انوارها أبعادها رجعت الى عميانها(١)

ولسنا نشك ان هذا الوصف للخمرة ليس هو المطلوب من شاعر الوصف ، ذلك ان الشاعر قد وصف فعلا مجموعة من الألفاظ والعبارات والصور الجامدة التي لاتحرك المشاعر ولايصل اثرها الى التأثير النفسي . كما رأينا ذلك عند شعراء الخمرة المعروفين ولاتختلف قصائد الشاعر الوصفية الأخرى في معانيها والفاظها وعباراتها وصورها عما ورد في القصيدة السالفة الذكر . ولذلك يحقق وصف الطبيعة لشاعرنا تكرارا ملحوظا وملحاً ، حتى لتكاد هذه القصائد الوصفية ان تكون نسخاً من غيرها . ونذكر على سبيل المثال بعض الصور والتشبيهات والعبارات والألفاظ التي صارت نسيجاً لقصيدة وصفية وهي :

(١) الديوان : ورقة /٢٠٩ - ٢١٢

(طرف الفجر ، والصبح ، وجنود الليل ، وسهيل ، والشعرى ، والسهى ، والثريا ، والدجى ، وغيوم الليل ، وهلال الأفق ، والجوزاء ، والبدر المنير) وكذلك الأغصان ، والأزهار وريح الصبا ونسيم الصبح والنرجس والأقحوان) . فمن هذه الألفاظ نسج الشاعر احدى قصائده التي يقول فيها :

كأن نجوم الزاهرات تساقطت على ارضها اوغض عنها السما طرفاً(١)

وفي قصيدة وصفية اخرى يقول في وصف الخمرة :

ياقوتة حمراء لكن غدت بالمزج صفراء كلون النضار(٢)

وفي قصيدة ثالثة يصف حديقة ، فيكون نسيجها من (الروضة والمسك والزهر والطل والشقيق واللؤلؤ والعقيق والنرجس الغض وخمر الندى ، والندامى التي تدير الكؤوس ، والغصن والطير فوق الأغصان ، وهبوب الصبا ، والبدر الذي يطوف والراح الممزوجة من شفتي الحبيب) (٣) .

وهذا النسيج اللفظي يكاد يتكرر تكرراً كاملا مع القصيدة الاولى .

ومن القصائد التي تلفت النظر في تكرر الفاظها وعباراتها وتشبيهاتها وصورها ومعانيها، قصيدة في وصف الطبيعة ووصف الخمرة ، يقول فيها وقد قدم فيها الخمرة على الطبيعة :

واشرب على نغم الاغاني خمرة من ثغر محبوب يدير الراحا
واذا فضضت ختامها فاح الشذى منها وأبدت نشرها الفواحا
مزجت بريقة شادن في حسنه يسبي العقول ويسلب الأرواحا
تبدو على ثغر الكؤوس حبابها كسقيط طل توج الأقداحا
خذها معتقة محددة الهنا تطوي الهموم وتنشر الأفراحا

ولوحة الخمرة هذه تكاد تتكرر في معانيها وصورها والفاظها وعباراتها مع القصيدة السابقة التي افصحنا القول فيها ، ومن ذلك تكرار فائدة الخمرة وتأثيرها في الشاربين .

---

(١) نفسه: ورقة /٢٣٥ – ٢٣٧
(٢) نفسه: ورقة /٢٣٨
(٣) نفسه: ورقة/ ٢٤٠ – ٢٤١

وكذلك اشارته إلى لونها وقدحها ورائحتها ، واخيراً في ربطها بجمال الحبيبة التي تسبي العقول .

فاذا تحول الشاعر إلى وصف الطبيعة بعد الخمرة قال :

في روضة قد اينعت أثمارها ... والزهر فيها عرفه قد فاحا
من أحمر في اصفر في اخضر ... في ازرق في أبيض قد طاحا
أزهارها قد طرزت خلع الربى ... والماء بين غصونها قد راحا
وحكى الشقيق بها غصون زمرد ... يحملن كاسات العقيق وراحا
وكأن نرجسه عيون مهفهف ... قد قام في أثر النعاس رواحا
والجلنار زهى على أغصانه ... مثل النجوم اذا زهت ايضاحا
والاقحوان زها بثغر باسم ... لما جرى دمع الغمام وساحا
والزعفران غدا كوجنة عاشق ... لما رأى محبوبه قد لاحا (١)

اما الابيات الأخيرة وعددها ثمانية ، فكان نسيجها من (الورود المفتحة والغيوم المنشورة ومن البرق والرعد ، ومن اللؤلؤ والزبرجد والدر) وامثال هذه العبارات هي كنز الشاعر في وصفه ، ولكنه كنز لا وهج فيه ، ولاتفصح مادته المعنوية ودلالاته اللفظية عن قشعريرة العاطفة ورقة المشاعر التي تجسد صدق التجربة الشعورية .

ولكننا يجب ان لا نلقي اللوم في هذا الوصف على قدرة الشاعر المحدودة حسب ، ولا على ثقافته الضئيلة في الادب الحي المطلوب ، لأن عصر الشاعر وبيئته أسهم كلاهما في تحقيق هذا الضعف .

وللشاعر موشح جميل ، اشار اليه دارسو الموشح ، وهو لا يخرج في موضوعاته عن هذا الخلط في الوصف ، واقصد به اختلاط وصف الطبيعة الميتة بوصف الخمرة ووصف مشاعر الحب (٢) .

* * *

(١) المرجع السابق /ورقة ٢٤٩ — ٢٥٠
(٢) ينظر الموشح بديوان /ورقة ٢٥٩ — ٢٦٠
ديوان الموشحات الموصلية : محمد نايف الدليمي / ١١٩

توزع غزل عبدالله باشعالم بين وصف الطبيعة ووصف الخمرة واحتفظ أحياناً بموقعه الخاص مع طلياته ونسيبه بعيداً عن الموضوعات الاخرى ، ولكنه بمجمله غزل مفتعل بعيد عن قشعريرة مشاعر الحب ، ولذلك صار بعيداً عن الصدق الفني والشعوري .

ويبدو لنا أن غزل هذه الفترة، هدف الشاعر فيه الى اختبار قدرته في النظم في كل ميادين الفن الشعري ومنه الغزل. وقد افصح شاعرنا عن هذا بقوله:

لعمر أبي الفضل أني لمغـــرم وفي كـل فن أنني أنا أعلـم

ولذلك فمن العبث البحث في جدية هذا الغزل وفي صدق الشاعر فيه الا ماجاء عفو الخاطر او قادت اليه الصدفة. ومن ذلك قوله في احدى قصائده التي نلحظ في ثنايـــا أبياتها سهاد العاشق وقلق المحب وعذاب المتيم :

أروح ولـبي بكـم روح تلظت وجنـن ليس يعرفـه المنام
ووجد والتيـاع واحتراق واتـواق واشواق عظام
واحشائي تحـن الـى لقاكم حنين الطفل أقلقـه الفطام

وعلى الرغم مما نلحظه من عذاب فراق الحبيب للحبيب، ومانجده في جمال التعبيـر والتصوير في البيت الثالث، الا أن هذا الألحاح في تكديس الألفاظ ورصفها رصفاً مادياً والتي تبدو على الخصوص في البيت الثاني— هو الذي يقلل من جمالية التعبير عن التجربة .

كما ان سلوك الشاعر في غزليته هذه طريق النسيب القديم قد أبعده عن ذات صاحبة . وقذف به الى الشاعر القديم حيث نسج على منواله .

ومع جدية هذه الملاحظة فلا يمكن أخفاء اعجابنا او موافقتنا على ماجاء في القصيـدة تعبيراً عن مشاعر الحب ، لأن الشاعر انسان لايعدم هذه المشاعر اطلاقاً كما سيتبين لنا . يقول في غزليته :

ولم أنس الوداع اذا عشقنـــا وطاش العقـل وانقطع الكلام
وهاج الشوق وانخلعت قلوب وفاض الدمع واشتعل الضرام
وغبت عن الوجود بهم هياماً وغابوا عن وجودهم وهامـوا

وفارق بعضنا بعضا بكره ... ووجد فتت فيه العظام
وسرنا والصدور لها التفات ... اليهم والقلوب بها كلام
قلوبهم تسير معي وقلبي ... مقيم معهم أنى أقاموا
أحبائي محبكم مقيم ... على ماتعهدون له التزام
وعهدي فيكم وترعون عهدي ... وليس لكم عن الود انفصام (١)

والقصيدة طويلة وكلها يجري على هذا النسق من التعبير عن مواجد الحب بهذه المعاني التي لاتخلو من الجري وراء معاني القدماء كما ذكرنا ولكن المعاني كما يقول الجاحظ مطروحة في الطريق فهي أذن ليست ملكاً لعصر ولاحصراً بأمة ولاوقفاً على شاعر دون آخر

- ويمكننا تأكيد الموافقة على قبول هذه الأبيات الغزلية من بعض الصور التي تقف على قدم ثابتة. فهي لاتسقط كمعظم شعر فترة الأنحطاط في فن الشعر . من ذلك على سبيل المثال: البيتان الخامس والسادس .فإن التعبير بهما ينبىء عن دفق عاطفي ودفء شعوري ومثل ذلك جاء جمال التعبير.

كما ان البيت الثاني يأتي توكيداً لحرارة العاطفة وذلك بقوله :(هاج الشوق) و (انخلعت قلوب) و(فاض الدمع) (واشتعل الضرام) .

ولا يعدم شعر باشعالم من مثل هذه القصائد الغزلية ، ولكنها اذا قيست بمعظم ماجاء في القصائد الغزلية الاخرى فانها تمثل ظاهرة ضعيفة . لأن اكثر هذا الغزل — على أنه لـم يختلط بالموضوعات الاخرى — قد مهد له بالطلل والنسيب كقوله :

ياحبذا نجد وسكانها ... ومرتع الغزلان من لعلع
وحبذا آرام وادي النقا ... كم اعبت في قلبي الموجع
لم أنسهم اذ خيموا في الفضا ... وناره شبوه في أضلعي
اخفيت وجدي بهواهم وقد ... باحت به يوم النوى ادمعي
ولم أزل ابكي على ربعهم ... دماً وهل يجدي بكا الأربع (٢)

(١) الديوان /ورقة ٣٢٨ — ٣٢٩
(٢) الديوان /ورقة ٢٢٢

ومعظم القصيدة يقوم على هذه المعاني الطللية والنسيبية التقليدية حتى يكاد بعضها يخلو من معاني الغزل الحقيقي الصادق ولو استعرضنا العديد من قصائد غزله لما أعجزتنا الشواهد، من ذلك قوله في احدى قصائده الغزلية :

ذاك العقيق وهذه نجد فانثر عقيق الدمع ياسعد
قف بين هاتيك الرسوم وعد نجوى العذيب وعنه لاتعدو (١)

معظم القصيدة يتألف من مثل هذه المعاني . فالشاعر لايعيش تجربة حقيقية ، ولكنه يعود الى اجواء ماقبل الاسلام يستلهم معاني شعرائها ، ويتخذ من العقيق ونجد والرسوم والاطلال ومن الأسماء التقليدية كليلى وسعدى وسعد وامثالها سبيلا لاظهار قدرته في هذا الفن ، بل يتخذ هذه المقدمة سبيلا للوصول الى الممدوح . وهو اسلوب شعراء ماقبل الاسلام كما هو معروف .

ولكن غزل الشاعر لايسير كله في هذا المنحى ، فهو يسلك سبيل النسيب أو الطلل أحياناً لينتهي به الى التعبير عن اعجابه بجمال الحبيبة فاذا هو يصف حسن قوامها وجمال وجهها وسواد شعرها وسحر مطلعها فيقول :

زمن مع المحبوب بت ضجيعه مع غفلة الواشي وبات ضجيعي

فعلى الرغم من ان هذا المعنى هو الآخر قديم لكنه يخلص منه الى الوصف الذي أشرنا اليه فيقول :

سرّ الجنا حلو الشمائل أهيف يزهو بوجه بالجمال بديع
ومليحة مابين غاسق شعرها لاحت كبدر التم عند طلوع

ولا يخلو وصفه لجمال الحبيبة أحياناً من التفاتات معنوية ونفسية ، تبتعد عن معظم وصفه الحسي الذي يرهق القصيدة بالتشبيهات المادية التي تثقلها وتنأى بها عن التأثير المعنوي كمثل قوله :

من طيب نكهتها ولحن حديثها كم فزت بالمشموم والمسموع
لو لم يشد نطاقها ارداقها هست لدقة خصرها بوقوع (٢)

(١) نفسه /ورقة ٣٢٣
(٢) نفسه /ورقة ٣٢٧

الا ان هذه الالتفاتة التي حققها (طيب النكهة) و (لحن الحديث) قد افسدها الوضوح في الشطر الثاني ، بذكر (المشموم والمسموع) . ولو كان الشاعر ترك الافصاح عنهما لكان أوقع في النفس واشد في التأثير .

وعلى الرغم من اشارتنا الى تقليد الشاعر في نظمه قصائد الغزل ، الاّ اننا لايمكن أن ننفي نفياً مطلقاً مشاعره الإنسانية في الحب التي يبوح بها أحياناً ، فالشاعر يبقى في كل الظروف والاحوال وفي مختلف العصور والازمنة محتفظاً باحساس معين تجاه المرأة التي تلفت نظره وتدغدغ مشاعره ، وتثير في عواطفه لواعج الحب وقشعريرة العشق.والذي يختلف فيه الشعراء بين عصر وعصر هو القدرة على الاثارة في التعبير عن صدق الاحساس وعلى توفير قدر من الفن الشعري الذي يثير فضول القاريء ويحقق في نفسه المشاركة الوجدانية. وشاعرنا عاش في عصر ضعفت فيه معظم هذه القدرات لكنّ هذا لاينفي ماكانت تضمره أحاسيسه ومشاعره من صدق الاحاسيس أحياناً والتي يظل يحتفظ بها ــ انساناً ــ أياً كان عصر التخلف الذي يعيش فيه .

وربما وجدنا لدى شاعرنا مايثير هذه الاحاسيس أحياناً فيفصح عنها ويبوح بها على طريقته المعروفة المألوفة . واغلب الظن ان مفارقته للموصل كانت تثير في نفسه الحنين لموطن ولادته وحبه ، حتى اذا آنس في عاصمة الاتراك مايثير مشاعره عبر عنه بصراحته المعهودة دون أن يخفي اعجابه ببعض من سلبن فؤاده من النساء التركيات اللائي أثرن في نفسه لواعج الحب فعبر عنها بقوله :

اقبلت تختال في حلي الامـــارة ... وعليها من سنا السعد إمـــاره
من بنات الترك عـن جلبابهـــا ... فككت أنمـل افكـاري زراره
خفرت بالغنج صبري عندمـــا ... عطفتها مرحاً أيدي الخمـــــاره
اسعرت في مهجتي نار الهـــوى ... فتجلت في ضروب الاستعاره(١)

وتثير أخرى مشاعر حبه ، فتحظى المرأة التركية مكاناً في غزله فينشد قائلاً :

---

(١) الديوان /ورقة ٢٧٤

فيا خليليّ رفقاً بالفـــؤاد فقـــد سلبته ايدي النوى من غير سلـوان
جنيت باللحظ ورداً لخديـن جنـا علي ظلماً فقال الورد ياجانـــي
فحسنه عربي واللحاظ غـــدت تركية ان سطت واللفظ يـونانـي

ومع هذا يبقى غزل شاعرنا بعيداً عن الاثارة التي يؤديها شعر الحب . وتبقى النصوص القليلة التي استشهدنا بها لتأكيد شعره الغزلي الجيد ، بعيدة عن التعميم ،لأن هذه الفترة لم تشهد من الشعر في كل موضوعاته مايدهش الناقد أو يثير القاريء بما يمتلك من عناصر الاثارة التي يحققها شعرنا العربي الحديث :

* * *

يكثر المدح في شعر القرن الثالث عشر كثرة مفرطة يكاد يطغى فيها على كل الموضوعات الأخرى ، لكنه من جانب آخر يسيء الى الفن الشعري اساءة شديدة لبعده عن صدق الشعور ولما أصيب به من ضعف ايضاً يلغي مضامينه الفنية ، ويكرر معانيه تكراراً يكاد يصبح في معظمه قصيدة واحدة تصدق على كل ممدوح ، ولأنه ايضاً جرى على اساليب القدماء في مقدماته الغزلية والنسيبية التي صارت لازمة للشاعر في الوصول الى الممدوح . فاذا مدح عبدالله باشعالم والي الموصل يحيى باشا الجليلي . فلا بد للوصول اليه من الوقوف على الاطلال التي وقف عليها شعراء ماقبل الاسلام ، والاّ عدت المدحة خارجة على تقاليد العصور ، ولذلك الزم الشاعر نفسه ، بالبكاء على ربوع عفت بعقيق الدمع وبالوقوف على اطلال المها وبذكر الرسوم التي امحت ودرست بتقادم الزمن . كما لابد له من أن يعيش بذكر ربوع اللهو مع الغواني اللائي تركن في نفسه آثارهن في الحب :

قف بنا نبكي ربوعاً قد عفـــت بعقيق الدمع لو يجدي بكاها
هذه الاطلال اطـلال المهـــا ماتراني قد عرانـي ماعراهـا
يالقومي من رسوم درســـت قادم الدهـر مـن العهـد محاهـا
حيث ربع اللهـو منها مؤنـــس والغواني رائعـات في رباهـا

ولا يمكن لشاعرنا الوصول الى يحيى باشا ومدحه الاّ اذا انتقل الى النسيب . والاّ اذا اكثر من الفاظ العشق والحب والهوى والاّ اذا تأسف على الليالي التي سلفت في منازل الأحباب ،

ولا يخلو هذا الأسف من آهات العاشق وتنهدات المسهد في الحب ، ولكنها بعيدة عن حرارة الصدق ، لأنها لاتمثل تجربة صادقة ، بل هي وسيلة للوصول الى الممدوح كما أسلفنا القول :

يارعى الله أوقات مضت قد قضاها الصب أيام صفاها
آه لو عادت لياليا التي سلفت في منزل الأحباب آها
كنت قبل العشق لاأدري الهوى يسلب الأرواح غصباً من حشاها (١)

فاذا مدح الشاعر الوالي محمد سعيد باشا ، تكررت وقفته على الاطلال والرسوم وبكى أيام الهوى وشكى سهاد الحب ، وتكررت كذلك الفاظ العشق والهوى والصبابة .

ياسائق الركب الملم بحاجر رفقاً بصب هائم معمور
قف يا رعاك الله بين طلولها وانظر مرابع رسمها المعهود
وانشد فؤدا بالغرام مقيداً بين الخيام من الهوى بقيود(١)

وهذا التكرار يصدق على المعاني التي يضفيها الشاعر على ممدوحه . والمعاني نفسها في قصيدة المدح قوالب جاهزة تصدق على كل ممدوح . فيحيى باشا حسام الدنيا ومعصمها وملجأها وتاج علاها ، وهو ركنها وحافظها وعامرها وحصنها وحارسها وحامي حماها ونصلها وعاملها وجنتها وسهمها وساعدها وكنزها ومعدنها واكسيرها وقطبها ومركزها ونجم هداها :

قلبها مقلتها غرتها راحها راحتها روح بهاها
شمسها زهرتها كوكبها بدرها رونقها نور هداها
روحها زينتها نزهتها ندها عنبرها مسك شذاها
حسنها بهجتها مهجتها هامها انسانها عين ضياها

وينتهي الشاعر الى ان هذه الصفات قد جعلت من ممدوحه ملكاً حكيماً كريماً سمحاً يهابه الأعداء وتخضع له المعالي طوعاً . وهو كذلك :

نشر العدل بحكم نافذ صحف الظلم بناديه طواها
هو غيث الأرض ان ضجت له نسبة تعزى الى ماء سماها (٢)

---

(١) الديوان : ورقة /٣١٣
(٢) نفسه : ورقة /٢٧٦ — ٢٧٧

واغلب الظن ان الشاعر لم يترك صفة لملك ممدوح الا واضفاها على والي الموصل هذا .

وكما كان للمدحة مقدمة طللية ونسيبية جاهزة تصلح لكل ممدوح ، فأن صفات الممدوحين كانت كذلك ،فهي تتحول من ممدوح الى آخر على حسب مايقتضيه الموقف ولكنها في كل حال تبقى الصفات ذاتها دون ان تتغير ، اما الذي يتغير فهو التقديم والتأخير والقلة والكثرة ، على حسب موقف الممدوح من الشاعر وموقع الشاعر من الممدوح :

فاق الملوك سماحة ونجاحة ورجاحة في غيره لم توجد

وهو ايضاً :

من معشر شم الأنوف كأنهم بالفضل عقد بالكمال منضد

وهو يمتلك العزم والحزم والسماحة والندى، وكذلك:

بطل اذا صلت صوارم عزمه خرت عداه في وجوه سجد (١)

وهو يسير الى العليا فيعلو الفلك وليث تنهزم أمامه ليوث الشرى .

فاذا تحول الى مدح الوزير احمد باشا قال عنه (انه مليك جليل ، اكثر كرماً من حاتم واشد اقداماً من عنترة واعظم رأياً من قيس ، واعمق فهماً من إياس. وبهذه الأوصاف صار ممدوحه :

فتىً جمع الأحسان والحسن والحجا برأي مصيب ماعتراه توهم

وزير بثوب العزم أضحى مؤزراً شجاع بحزم الله فهو المحزم

وليس هذا فحسب . فممدوحه :

رفيق شفيق بالرعايا ومنقذ اذا ماجيوش الخطب تسطو وتهزم

بسيط العطايا وافر العقل كامل مديد السجايا بحر فضل مطمطم

أديب حليم الخلق بر مكرم جليل جميل الخلق شهم معظم (٢)

---

(١) نفسه :ورقة ٣٠٤ — ٣٠٥

(٢) نفسه :ورقة /٣٣٨

ومن هذه المعاني التي تشابهت وتشابكت بنسيج الشاعر قصائده في مدح الولاة والوزراء وغيرهم من الذين اتصل بهم. غير ان واحداً من ممدوحيه قد خص بمدحه تخرج على هذا القالب الجاهز من المعاني التي اشرنا اليها، بل هي تشذ في اسلوبها الذي يخلو من المقدمة الطللية والنسيبية، او تقتصر على معاني الأدب والشعر والفصاحة دون غيرها من المعاني الأخرى ويبنيها الشاعر على غرار همزية البوصيري فيقول :

كيف تسمو سموك الشعراء ياشهاباً سمت به العلياء
وبروض الآداب جزت فأحرزت وروداً لم يجنها الأدباء
اسكرتنا اشعارك الغرّ حتى سكرت من انشادها الصهباء
فيك سر من البلاغة خاف لم تطق نشر طيه البلقاء
وتناهت بك الفصاحة حتى عجزت عد ذكرك الفصحاء (١)

ويمدح الشاعر الرجل نفسه بقصيدة اخرى فيضفي عليه المعاني نفسها . وبذلك يمكن القول ان مديح باشعالم لايختلف في شيء عن مديح غيره من شعراء عصره لأن معانيه تصلح لكل ممدوح وتجوز في كل حالة .

* * *

ليس لعبدالله باشعالم في الفخر سوى قصيدة واحدة طويلة . وخمسة أبيات متفرقة .وليس في هذا الفخر القليل جديد لأن صاحبه تابع القدماء في معانيه ولم يختلف عنهم في أسلوبه.

واول مايلفت النظر في قصيدته اليتيمة هذه . فخره بنسبه الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه :

فنحن بنو الفاروق ليس بذا فتىً لئيم ولا بالمكرمات بخيل

اما المعاني الأخرى في القصيدة فيستخلص منها العز والسؤدد والرشاد والعلى والبأس والكرم ، وبها صار قومه شيوخاً وشباباً وشموساً تشرق نورها دون أفول :

وما نحن الا الشمس يشرق نورها ولكنه لايعتريه أفول
وفينا اذا عدّ المفاخر سادة شيوخ وشبان علت وكهول

(١) الديوان :ورقة /٣٣٩

وبهذه الصفات يقول الشاعـــــر :

سبقنـا الورى عزاً وفخـراً وسؤددا وفينـا الى طرق الرشاد دليـــل.

والشاعر يفخر بكرم قومه وشجاعتهم فيقول :

رجال لنا عنـد الكفاح ضراغـــم وأيـد لنا عند العطـاء سيـــول

ويستعير صورة الكرم التي تجسد شخصيه حاتم الطائي فيقول :

ونار قرانـا في الليـالي مضيئـــة وظل حمانـا للوفـود ظليـل(١)

وفي أبيات أخرى يعتد الشاعر بنفسه الى جانب فخره بنسبة العمري فيقول :

اني وأن كنت في اصلي وفي نسبي أعزى الى عمر الفاروق ذي الحسب

ماسدت بالارث عن جد سما وأب وانما سدت في علمي وفي أدبي

اني عصامي نفس بالفضائل قـد بلغت فوق الثريا أرفع الرتب(٢)

غير أن أفضل ماجاء في فخره قوله :

ان كان كفي من الاموال خاليـة فان نفسي ملاء من فضائلهـــا

قطع السيوف بدا في حد جوهرها وليس في غمدها أو في فضائلها

وربما أكد هذا عفته . ودل على بعده عن اعتاب الولاة والحكام .

* * *

لايختلف رثاء عبدالله باشعالم عن مدحه وفخره ، لأنه تابع فيه معاني القدماء،وأخفق في التعبير عنها بما يحقق عنصر الجدة والاثارة . وكما كان للزمن دوره في قصائد الشكوى ، فقد كان له حضوره في قصائد الرثاء ، فهو يحمله ماأصابه من فواجع . وحاق به من نوائب وألم به من مكاره .

فجعنـا يازمـان بسوء فعـــل تبدى منك إذ وافى الحمـــام

تعاديتنـــا بـلا ذنـب وزورٍ وتأخـذ مايهـد بـه الدغـام

(١) نفسه :ورقة ٢٤٢ – ٢٤٣

(٢) نفسه :ورقة /٤٢٢

وفي رثاء أحد اصدقائه يكرر لومه للزمان فيستقبحه ويقول :

فيا زمناً أضحى ذميماً وما رعى ذماماً ما يراعي الأصيل المكرما
فيا دهر مهلاً أين من كان ذا ندى زكياً نديأً طيب الذات مكرمنا
ويادهر مهلاً أين من حاز منطقاً بديع بيان في معانيه قد سما (١)

وفي مرثية لسليمان افندي العمري يتعرض مرة ثالثة للزمان ويقرنه بالهموم والأحزان والموت فيقول :

أيا زمان به غم وأحزان وفيه كأس الردى للناس ملآن (٢)

والحق أن مامن مرثية للشاعر تخلو من ذكر الزمان القاسي الذي يأتي أحياناً بلفظة (الدهر) ولكنة يرتبط لديه بمعاني الغدر . كقوله في رثاء محمد شريف بك :

أصاب الدهر منه بسهم غدرٍ قلوباً خطبها خطب جليل
وحملنا بفرقته هموماً علينا حملها حمل ثقيل (٣)

ويحتل التأسي في قصيدة الرثاء حيزاً واسعاً يجري فيه على طريقة القدماء ، ولا يخلو هذا التأسي من صدق الموقف الشعوري الذي نلحظه في رثائه لعبد الله أغا عبيد افندي الذي يبدي فيه أساه وحزنه على مفارقته فيقول :

مصاب لايطاق وعظم بلوى وأحزان يخالطها سقام
وفرط أسىً وفقدان قلب تأجج فيه من كرب ضرام

وعلى عادة القدماء يطلب للفقيد الرحمة من الله ويتذرع بالصبر على المكاره فيقول :

أيا قبراً يضم عظام فرد عظام لم تماثلها عظام
عليك الرحمة العظمى تجلت من المولى المعظم والسلام(٤)

وعلى الرغم من أن رثاء باشعالم لايخرج عن صورته التقليدية المألوفة ،ألا اننا نلحظ في بعضه مايجسد لواعج أسى الشاعر ويحرك مشاعره الانسانية ، ويعكس عواطفه النبيلة الحارة.

(١) الديوان :ورقة /٤٦٨ – ٤٦٩
(٢) نفسه ورقة /٤٧١
(٣) نفسه ورقة /٤٧٢
(٤) نفسه ورقة /٤٧٥

كمثل موقفه من وفاة محمد شريف بك ، حين يقول تعبيراً عن حزنه بوفاته :

بكت أجفان عين الناس طرا عليه كأن أدمعها سيول
نعته الغانيات ذوات خدر فهتكت البراقع والحجول
ولو يغني البكاء لكنت ابكي عليه دماً على خدي يسيل
ولو يجدي الفداء فديت نفسي وأرضى أن يقال هو القتيل
ولكن لايرد الحزن شيئاً ولم يفد التأسف والعويل
كفى بالموصل الحدباء حزناً وحق لها النواح المستطيل (١)

ويمثل هذا الموقف الوجداني مكان الصدارة في المرثية، لأن المعاني الأخرى فيها تظل تقليدية لاجديد فيها ، ولأنها تجيء جاهزة ومرتبة محددة لاتدغدغ مشاعر الألم أو تجسد عواطف الأسى .

* * *

وفي ديوان عبدالله باشعالم موضوعات متفرقة كثيرة ؛ فقد عالج الشيب واستنبط منه المواعظ والحكم والتجارب وربطه بالزهد في الحياة من ذلك قوله :

اذا الشباب تقضى والمشيب أتى فلذة العيش لايبقى لها أثر

وقوله :

لم يبق من عمر الفتى بعد المشيب سوى القليل
ماللشباب اذا بدى صبح المشيب سوى الرحيل

وربطه أحياناً بوقار صاحبه فقال :

وانما الشيب وقار الفتى قالت وحجتي بذاك البيان (٢)

وللشاعر مواعظ وحكم ونصائح كثيرة استنبطها من تجاربه في الحياة وخبرته بطبائع الناس . وقد توزعت على كل ديوانه . ولكنه أفرد لها مطولة جمع فيها الكثير مما يعكس

(١) نفسه ورقة /٤٧٥
(٢) الديوان :ورقة /٥٧٦، ٥٥٩، ٤١٣، ٤٠٢

خبرته للحياة وعمق معرفته بالناس وكثرة تجاربه التي اكتسبتها من عمره الطويل ، ومن عشرته لصنوف مختلفة من طبقات المجتمع وبحكم صلاته بهم ، ومن اسفاره القريبة والبعيدة التي عمقت في نفسه عنصر التجربة وزادت من معرفته لأصناف البشر وكشفت له عن معادنهم المختلفة وهيأت له حصيلة وافرة تحولت الى تجارب واقعية بالحياة . والقصيدة طويلة تزيد عن مائة وخمسين بيتاً يقول فيها :

عقل الفتى يعرف من مقاله ... وأصله يعرف من فعاله
هل يستوي الغبي واللبيب ... والرجل الصدوق والكذوب
ليس الفتى بالحسن والجمال ... بل الفتى بالعقل والكمال
وكن عزيزاً لاتكن ذليلاً ... وكن خبيراً لاتكن جهولا
من سابق الجواد بالحمار ... جنت يداه ثمر الغبار
خير الندى مال من الحلال ... يصرف للفقير في النوال
أذا الفتى قد ذهب الحياء ... منه فقد حلّ به البلاء
وآفة المرء من اللسان ... وآفة العلم من النسيان
والعقل للمرء صديق صالح ... والجهل في المرء عدو طالح
ان المزاح يزري بالحياء ... ويذهب الوقار بالرياء
وليس كل عشرة تقال ... وليس كل فرصة تنال
ان يكن الغلام طفلاً عاقلاً ... احسن من شيخ يكون جاهلاً
ومن يكن يسرع بالجواب ... يكن بطيء القول بالصواب (٢)

وفي ديوان الشاعر تخميسات كثيرة ، اشهرها تخميسه لهمزية البوصيري التي تابع فيها معاني التخميسات التي سبقت (٣) وقد خمس الشاعر ايضاً قصيدة البردة المشهورة سنة ١٢٧٢هـ .

---

(١) نفسه : ورقة /٤٠٢ — ٤٠٨

(٢) تراجع الهمزية ، بديوان المخطوط .ورقة /١ — ١٣٥

وقد قرض هذين التخميسين مجموعة من الشعراء والعلماء ، في مقدمتهم الشاعر عبد الباقي العمري وعبد الغني الجميل وعبدالله فيضي وآخرون (١) .

ولشاعرنا رباعيات وثلاثيات جاء معظمها في الغزل .

وله فصل طويل في الدوبيت ، جاء أغلبه عن (انواع الكلام) وقليل منه في الشيب .وقد ترك في التاريخ الشعري شعراً كثيراً ، أرخ فيه لكثير مما يعد وثيقة تاريخية مهمة لمدينة الموصل في الميادين الاجتماعية والعمرانية والعلمية ، ومنها ولادته التي ورد تاريخها سنة ١٢٠٨ .

الطبيعة الفنية

من بدهي القول ، ان القرن الثالث عشر قد ضعفت فيه مواهب الشعراء ، وهزلت معها قدراتهم الفنية شكلا ومضموناً حتى غدا شعرهم ألاعيب واحاجي ومعميات ،وظيفتها الأولى تزجية الوقت واظهار البراعة والقدرة في النظم ، دون النظر في ماينتهي ذلك كله الى ضعف في العمل الأبداعي .

ولذلك تحولت القصيدة عندهم الى اشكال تخلو من المحتوى الفكري الناضج .

والواقع ان هذه الاساءة الى الفن الشعري ليست وليدة هذا القرن حسب ،بل تمتد جذورها الى قرون اخرى سبقتها الى هذا التخلف ولوبحثنا في طبيعة شعر عبد الله باشعالم الفنية لوجدنا فيها الكثير من مظاهر الضعف سواء في اللغة والأسلوب أو في الصورة الشعرية او في استعمالاته البلاغية .

(١)

اذا كان الشعر في دلالاته ظواهر لغوية ، فأن اللغة هي مفتاح الولوج الى جوهر الشعر وحقيقية)(٢)وللشعر دور متميز في اللغة يعبر بها عن مضامينه المختلفة لأنه(يطور اللغة العادية ويجددها وان الشعراء لايخلقون الشعر فحسب ، بل انهم يخلقون اللغة ايضاً) (٣) .

(١) تنظر التقاريض بديوانه ورقة /١٣٢ ، ١٣٥ ، ١٨٤

(٢) لغة الشعر الحديث في العراق :عدنان حسين العوادي /١٠ بغداد ١٩٨٥

(٣) مداخل الى علم الجمال الادبي : عبد المنعم تليمة /١١٤ القاهرة ١٩٨٧

وشعر عبد الله باشعالم ينحى في اسلوبه منحى الشعر القديم ،ويبدو اعجابه أكثر بشاعر ماقبل الأسلام الذي كان يتخذ من الطلل والنسيب سبيلا الى غرضه الذي يهدف اليه وخاصة المديح. وقد جرى شاعرنا على هذا الأسلوب حين أتخذ من مواقع الجاهليـــة واسمائها واطلالها ومرابعها، تمهيداً لموضوعه ،لذلك فقد ورد في مقدمات قصائده ذكر لوادي العقيق ومغاني حاجر والخيف والمحصب وربع الحمى وسفح اللوى والآرام والأظعان والنوى واستعار من الشاعر القديم قوله :

ياخليلي قفـانبك على طيب عيش قد مضى اوكان دامـا

وكثر في شعره ذكر الطلول كثرة مفرطة .من مثل قوله :

بيـن الطلول هـام قلبي فمـا أدري الـى أي الطول أذهب

وكذلك الأضعان والربوع :

حادي الأظعان قـف لي لحظـة بربوع كـان فيهـا مرتعـي

واقترنت ريح الصبا في شعره بأرض نجد :

كفـاك ياريـح الصبـا منة حمل شـذا الأحبـاب من نجد

وارتبطت ربى نجد بالسحب والمطر، ووقف على سلع واهله، واقترنت نجد بذكر العقيق ، وارتبطت هذه الصورة بعقيق الدمع :

ذاك العقيـق وهـذه نجـد فـأنثر عقيـق الدمع ياسعد

وبنيت ابيات من الشعر بأكملها بناء قديماً وتخللتها أسماء قديمة أيضاً :

مرعـى الجآذر فـي مرابعـه الشيـخ والتيصـوم والرنـد

ووردت اسماء لبنى وسعدى وليلى وهند وسعد وقيس وارتبطت بمنازل الأحباب وورد معها ذكر ريم الحجاز وريم نجران :

إني فهمـت فـي ليلـى فما أربـى ليلـى ولاسعـدى ولا هنـد

ياصاح ان جزت الحجـاز وحاجـر ومـراتع الارام من نجران

(١) الديوان :الاوراق /٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤، ٣٠٧، ٣١٤

وتكررت كثيراً اسماء الاماكن واسماء الأعلام ومواقع الحب ومرابع الهوى واقترنت بها أثار الهجر والام النوى، من مثل (رفقاً بصب هائم) و(قف بين الطلول) و(انظر مرابع الرسم) و (عج بالرسوم الدارسات) و(ربع الحمى) و(رسم الأحبة) و(تغنو الظعون) وبمثل هذه العبارات بنى الشاعر شعره ونوع بها اساليبه، لكنها تظل بعيدة عن روح الشعر الجيد لأنها ظلت تابعة لأساليب القدماء.

* * *

ولموقع الشاعر العلمي، ولثقافته الدينية أثر في لغته، فقد تأثر بلغة القرآن الكريم حتى جاء بعض أبياته أقرب الى الاقتباس، كقوله:

ولن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وحتى تتقوا

وقوله:

وليس يحيق المكر الاّ بأهله اذا لاح نور الحق عند التجارب

وقوله:

واني لم اشرك سواهم بحبهم وآمنت في توحيدهم بالبها قدما

وجاء بعض العبارات صدى لرئاسته لعلماء الموصل، وتجسيداً لثقافته الدينية، كقوله:

قضى الله للعشاق بالحزن والأسى ولا رد لو قاضي القضاة قضى حكما

وقوله:

أبحت قتلي وقاضي الشرع حرمه فهل بقتلي مفتي العشق أفتاكي (١)

واستخدم باشعالم اللغة العامية اسوة بشعراء عصره، وقد جاء بعض ذلك جميلاً خفيفاً، وورد بعضه الآخر نابياً ثقيلاً شكلا ومضموناً، من ذلك قوله موظفا بعض الالفاظ الموصلية المحلية التي تعكس بيئة الموصل الحضارية والفولكلورية:

آهاً على بطيخها وخيارها أو قرعها المطبوخ بالرمان

وقوله مشيراً الى الايوان، وهو جزء مهم من دار السكن في مدينة الموصل:

(١) الديوان: ورقة /٤٠٤، ٣٠١، ٢٢٧.

وأطوف في تلك الوهاد تنزهـاً وأعود في فرح الى الايـــوان

وقد ذكر في قصيدته التي أسلفنا الحديث عنها ، مجموعة من اسماء الأماكن في مدينة الموصل ، لاتزال تعد من مواقعها المهمة التي تشكل تراث المدينة الحضاري والقومي ، منْ مثل (تل العاشق ، يحيى أبي القاسم ، وادي سحله ، شط الحصا ، الجوسق ، الدندان ، وادي العوينا ، حمام العليل ، تل السبت ، جامع النبي شيت ، جامع النبي جرجيس وغيرها كثير» (١) .

ومن استخداماته العامية السيئة قوله:

قورت به منا العيون وان يكـــن قـــد قـــورت فيـه عيون حقـــود

وأقبح منه قوله يهجو أحد خصومه:

أقبـح من جرم خنـاه عـــذره كمـن يغســـل بالبول الخـــرا (٢)

وفي شعر باشعالم ، تكثر الأخطاء الاملائية والنحوية ، وتنتشر التجاوزات العروضية ؛ فقد استخدم لفظة (بلول) وهي محلية موصلية بدلاً من (بلور) ، وأخطأ في كتابة كلمـة (أضاءت) اذ جعلها (أضائت) (ووردت كلمة (ثارة) بالتاء الطويلة (ثارت) وجاءت لفظة (الهوى) بالالف الممدودة (الهوا) ورفعت همزة) ضيا (ضياءه) المنصوبة على كرسي الياء (ضيائه) وذلك بقوله :

فاق الغزالة ونوره وضيائه ...الخ البيت.ووردت كلمة (اهدى) بالالف الممدودة (اهدا) ومثل هذه الاخطاء كثيرة بديوانه وتنسحب هذه الظاهرة على الاخطاء النحوية،اذ تنتشر بديوانه انتشاراً شديداً كمثل قوله (اين لي عمر نوح الف عاماً) والصحيح (الف عام) . وقوله: (وليس عجيب) والصحيح (وليس عجيباً) وقوله (ان كنت بدر) والصحيح (بدراً) وقوله (لو أنها نطاقاً) والصحيح (نطاق) ، ويقول (ولم يردي) والصحيح (يردِ) مجزومة بحذف حرف العلة (وسلوا محب) والصحيح (محباً)ومثل هذه الاخطاء تشكل ظاهرة سيئة بديوانه(٣)

* * *

(١) تراجع في القصيدة ورقة /١٨٨ – ١٩٦

(٢) الديوان ورقة /٣١٦، ٥٧٧

(٣) تراجع بديوان ورقة /٢٠٣، ٢١٣، ٢٥٢، ٢٦٧، ٤٦١

اما ضعف التعبير فانه يشكل اضعف ظواهره الفنية لأن قاموسه الشعري في الفاظه وعباراته ، وكذلك ضعف قدرته في البناء الشعري ، وما يسوده من أخطاء وما يعمه من تكرار ممل يثقل كاهل البيت ، وكذلك ضعف صوره وجريه في اسلوبه وراء الأقدمين كل ذلك قد حقق في تعبيره ضعفاً وفي اسلوبه ركاكة أساءت الى فنه الشعري.

ولايعجز الباحث الاستشهاد بأية قصيدة من قصائده للتأكيد على ضعفه الأسلوبي ومن ذلك قوله.

خمرة قد مزجت في ريقه فلهذا أسكرت من جهتين

فكأن في البيت معادلة كيميائية قوامها الخمرة وريق المحبوب ونتيجتها سكر الشارب . وقوله:

وصفاء ريقتها الى ماء السما ينمى وينسب ثغرها للجوهري (١)

وامثال هذه التعابير تنتشر بديوانه.

اما التكرار فهو ثالثة الأثافي في شعره . وربما تكرر في كثير من ابيات القصيدة والشطر والبيت، حتى تحول الى لعب بالألفاظ كقوله :

ولطالما طال اشتياقي بعدهم طال اشتياقي بعدهم ولطالما

ويلاحظ في البيت تكرر حرف الطاء ولفظتي طال— ولطالما. ومثل هذا قوله.

ياليتما عطفوا علي بنظرة عطفوا علي بنظرة ياليتما

وكذلك قوله

عهدي به قد كان يرعى في الهوى عهدي ويحفظ بالتعاهد معهدي

وقد اساء الى البيت تكرار حرف الهاء ومايتكون منه من الفاظ .

وقوله :

وعام ينقضي معكم كيوم ويوم لاراكم فهو عام

فقد تكرر حرف الميم ست مرات، وتكررت لفظتا عام ويوم مرتين . وقوله :

راح بها روح براحة أغيد ان راح يسبي الروح من جثمانها

(١) ديوان :ورقة/ ٢٦٧ ؛ ٢٢٦

فمعظم البيت مبني على حرفي الراء والحاء، فأساء ذلك الى البناء.

ومثل هذا قوله:

بيد الصبا عصر الصباح كرومها فضت وراق عصيرها بدناها

فقد تكرر في البيت حرف الصاد خمس مرات. ومثله قوله:

اذ راح يحكي الراح في راح كفه ويمزجها من ريقه الشيم الشهد

فقد تكررت لفظه الراح في الشطر الأول فقط ثلاث مرات. وقوله

فويل لهم ويل وويل فكم له عليهم أياد سائغات المشارب (١)

فليس في الشطر الأول غير لفظة (الويل). وعلى هذا النسق المطرد بنى الشاعر كثيراً من قصائده

(٢)

اذا بحثنا موضوع الصورة في شعر عبد الله باشعالم . فأن أخطر مشكلة تجابهنا هي حقيقة الصورة نفسها خصوصاً اذا سلمنا بأن الصورة في حقيقتها هي عملية (تركيبية وجدانية تنتمي في جوهرها الى عالم الوجدان أكثر من انتمائها الى عالم الواقع) (٢)

واذا آمنا كما يقول دي لويس(ان الخيال هو الملكة التي تخلق وتثبت الصورةالشعرية)(٣)

كما ان اللغة الشعرية تلعب دوراً حاسماً في نجاح الصورة ، لأن الصورة في نظر البعض (هي اللغة مضافاً اليها الخيال) (٤). كما ان البحث في العلاقة بين الشاعر ولغة التعبير عن افكاره وعواطفه ومشاعره هي القاعدة التي تعتمدها الصورة) (٥).

فاذا عرضنا الصورة الشعرية في شعر عبدالله بأشعالم واجهتنا مشكلتها مع كل القيم

---

(١) نفسه ورقة /٣٣٢، ٣٠٣، ٦٢٨، ٢١٢، ٣٠١

(٢) الشعر العربي المعاصر :عز الدين اسماعيل /١٢٧

(٣) الصورة الشعرية :سي دي لويس .ت احمد نصيف الجنابي /٧٣ بغداد ٩٨٢

(٤) التجديد في الادب معناه وتطوره: ابراهيم الفرملي /م الادب بغداد /٥٤٠ عدد ١٩٧٩/٢٤
وينظر العقاد ناقداً عبد الحي دياب ٤٨٣ — ٤٩٣ مصر ١٩٦٥

(٥) الصورة في القصيدة العراقية الحديثة :عناد غزوان /الاقلام /٨٦ عدد /١١ — ١٢

الفنية التي استشهدنا بها، سواء مايتصل منها بوجدان الشاعر الذي يضعف ضعفاً شديداً ، أوما يتعلق بعنصر الخيال الذي يكاد يغيب في شعره او في صلتها بالعاطفة التي يسودها الجفاف أوفي علاقتها بعنصر اللغة الشعرية التي رأينا ضعفها وركاكتها وضحالتها في الكثير من قصائده.

والحق اننا لوحاولنا بحث الصورة الأدبية لشعراء القرن الثالث عشر الهجري ومنهم شاعرنا لما امكننا أن نضعها الا في باب الصورة البيانية فحسب ، ولكنها تخفق أيضاً في تأكيد حضورها ، من حيث نجح شعراء العصر العباسي في رسمها نجاحاً كبيراً. والسبب يعود اولا وآخراً الى ضعف قدرة الشعراء وامكاناتهم الفنية في هذه الفترة ومنها الصورة لدى شاعرنا اذ فقدت كل المقومات الضرورية في تشكيلها وصياغتها وفي توفير عناصرها الأساسية المطلوبة لديه (١) .

وازاء هذه المتطلبات لأبد ان نبحث في الصورة الشعرية لعبد الله بشعالم في ضوء واقع فنية القصيدة في هذا القرن. أول مايلاحظ في صوره أنها تقليدية جافة ، ذات ابعاد محدودة ،وطبيعة مادية قاسية ،وانها في معظمها ترسمت صورة شاعر ماقبل الأسلام . من ذلك قوله :

ومـلاح فـي خـدود طلعـت بوجـوه كـالبـدور المطلـع
أقبلت تختـال في حلتهـا بقـدود كـالرمـاح الشرع
تركـونـي يـوم زمـت عيسهم بفؤاد مستهام موجع (٢)

ويلاحظ في هذه الأبيات الثلاثة الحدود القاسية والمادية المستحكمة في الصورة، ولو كان الشاعر حاول استغلال العنصر العاطفي والنفسي الذي تحققه حالة وداع الحبيب للحبيب لأستطاع البيت الثالث ان يحقق صورة جيدة وذلك بتوفير عنصري العاطفة والخيال على الوجه المطلوب ولكنه أخفق في تحقيق ذلك. ويقول في القصيدة نفسها :

حادي الأضعـان قـف لي لحظة بربـوع كـان فيهـا مرتعـي

والصورة منسوخة نسخاً تاماً من صور شعر ماقبل الأسلام .

---

(١) يرجع بهذا الى عناصر الصورة : العقاد ناقداً عبد الحي دياب /٤٤٤ – ٤٤٧

(٢) الديوان ورقة /٢٠٨

ومن صوره التقليدية تقليداً ملحاً للصورة القديمة قوله :

وبدت تجسر من الدلال ذيولها قد وشحت بجواهر وعقود

فليست صورة الدلال والغنج والتبختر التي يعج بها التصوير القديم هي مايلاحظ فيها حسب ،ولكنه الشطر الثاني الذي توافر على ادوات الزينة ، وهي أدوات محسوسة منظورة مادية هي التي اساءت الى البيت، وقضت على العنصر المعنوي الذي كان يمكن ان يستغل في الشطر الأول . .

ويتابع الشاعر تصوير حبيبته فيقول :

واذا تبسم ثغرها ضاءت لنا مابين بانات النقاد وزرود

بزهو محياها الجميل كروضة مشحونة بمحاسن وورود

بشقيق وجنات ونرجس أعين وخزام أصداغ وورد خدود (١)

وعلى هذه الشاكلة راح الشاعر يصف وجهها بالرياض المشحونة بالورد — وهو تعبير سيء— ويصف وجنتيها بشقائق النعمان وعينيها بالنرجس ، وصدغها بورد الخزام وخدودها بالورد .

وكل التشبيهات في البيت الثالث يعتمدها البيت الثاني في لفظة الروضة لان هذه التشبيهات مجموعة اشياء في شيء واحد وهو الروضة ،وكلها منتزع من المألوف في الوصف العربي القديم ، ويعتمد المحسوس المنظور— وليس فيه أي أثر نفسي أومعنوي .

وعلى هذا الاساس يقوم معظم تصوير باشعالم ، بل يقوم عليه معظم تصوير شعراء هذه الفترة .

والملاحظة التي تلفت النظر في هذا التصوير ، هي ارتباطه ارتباطاً شديداً بمظاهر الطبيعة كما اسلفنا في ذلك القول وربما قامت قصيدته التي وصف فيها معالم مدينته الموصل على هذا الاعتبار ، واغلب الظن أن بيئته التي قضى فيها معظم سني حياته كان لها أثر في ذلك .

وليست ادوات الزينة المنظورة والمحسوسة الطبيعية هي التي اعتمدها الشاعر في تشبيهاته واوصافه . وهي التي تنتشر في الرياض والحدائق ، بل امتدت أداته التعبيرية الى مايكمن في

(١) نفسه ورقة /٣١٣

البحار من ياقوت ودر ومرجان وجواهر وأصداف . ومن ذلك قوله :

والخد ياقوتة والثغر جوهرة وقد حكت شفتاه عقد مرجان

له ثنايا كدر ضم في صدف من فيه والريق فيه من شهد حلوان

وورد خديه في جنات وجنته من عارضيه لقد حفت بريحان (١)

ويتابع الشاعر وصفه لمظاهر جمال الحبيبة، فيتحدث عن لحظها وجيدها وأعطافها التي تحكي غزلان نجران وعن خصرها الذي يشبه دقته الهلال ، وعن قوامها الذي يحكي الاغصان .

وبتعبير دقيق ، يمكن القول : ان الصورة في شعر عبدالله باشعالم اعتمدت مادتها ونسيج ملامحها كل مظاهر الطبيعة الحية المعروفة ، وقد أساء هذا الى فنيتها اساءة شديدة ، لأن هذه المظاهر ظلت تحتفظ بعنصرها المادي وبقيت في الصورة الشعرية مقطوعة الصلة بمواقف الشاعر الانسانية ومشاعره الوجدانية ، وذلك لأن عنصر الخيال — وهو عنصر أصيل في الصورة — لم يكن على وفاق مع عنصر العاطفة . كما ان اتجاه الشاعر الى التقليد حسب ،قد أضاع الفرصة على ابتكار الصورة الجيدة بل يمكن القول ان معظم العناصر الفنية الاخرى المطلوبة في الصورة لم تكن على وفاق هي الاخرى مع اتجاه الشاعر في رسم الصورة الأدبية المطلوبة .

وتبقى ملاحظة أخيرة ، وهي توفر هذه الصورة على عنصر اللون توفراً لاحدود له ، ويعزى هذا في رأينا الى ان اللون عنصر منظور أولاً . وأنه بعد ذلك مرتبط ارتباطاً عضوياً بمظاهر الطبيعة التي سيطرت — كما قلنا — على عنصر التصوير في شعره سيطرة شديدة .

(٣)

ان غلبة الصورة البيانية والمحسنات البديعية في شعر عبدالله باشعالم ،قد وفرت قدراً كبيراً من الأوجه البلاغية ولكنها لم تحقق الهدف الجمالي المطلوب ،لأنها اساءت الى فن الصورة وجمال

(١) الديوان : ورقة /٣٢٠

العبارة وقوة الفصاحة ، وذلك لأن هندسة هذه الاوجه لم تكن على قدر من البراعة البيانية بل جاءت تكديساً للجناس والطباق والكناية والتشبيه غير الموفق — وبذلك لم تؤد غرضها المطلوب في الجمال والايحاء ، بل اثقلت الصورة وحملت البيت الشعري اكثر من طاقته ويبدو ان فن الجناس والطباق كان اكثر حظا من كل المحسنات في شعر شاعرنا ، وربما كان معظم شعر القرن الثالث عشر كذلك . وهدف هذين اللونين في الشعر القديم هو تجميل البيت وترصيعه واضفاء حلة من الجمال عليه . لكن شعراء فترة ركود الفن الشعري قد اساؤا استعماله ، وتابعهم في ذلك عبدالله باشعالم فأكثر الاساءة ، وجعل البيت كله تموم على المجانسة والمطابقة . من ذلك قوله :

واهوى الغواني وانعى المغاني وانشي المعاني وأبدي الفضولا

فقد جانس بين الغواني والمغاني وعلى ذلك قام البيت فنقد جماله وهدم معناه . ويبنى البيت كله من الجناس في كثير من شعره كقوله :

تقياً نقياً حييا بهياً ذكياً زكيا جميلا جليلا
عطوفاً رؤوفاً عفيفاً شريفاً رحيما حليماً كريما أصيلا(١)

ولو حاولنا حصر الجناس وانواعه في شعره الشاعر لعجزنا عن المحاولة ، لأن هذا اللون في شعره يشكل اعظم الظواهر الشكلية التي أساءت الى فنه الشعري .

في شعره يطابق بين الوصل والقطع بقوله :

وما هو الابا قتحام مهالك ووصل مسلمات وقطع سباسب

وفي طابق البيت التالي بين فساد وصلاح فقال :

ومن يك من اهل الفساد فماله صلاح سوى تقطيعه بالقواضب(٢)

---

(١) الديوان ورقة /٢٨٦ — ٢٨٧
(٢) نفسه ورقة /٢٩٦ ، ٢٩٧ ، ٣٠١

وعلى هذا النحو راح « الشاعر يملأ شعره بالطباق الذي يحول بين الشعر وجماله . وليست الكناية أقل حظاً في شعر الشاعر ، على انها اقوى اداء ، واجمل تمثيلا ، وذلك . لمايتوافر عليه من أيحاء لايتوافر في والجناس والطبـاق ، فمن كناياته المقبولة قوله :

يـكفـيـه للـراجـيـن عشر سحـائـب وفـيـهـا لأهل البغـي عشر كتائب

كنايه عن كرمه وسطوته . ومثله قوله :

نميـر إذا عاديتـه عـاد عـلـقـمـاً وصعـب لدى الهيجا مع لين جانب(١)

كناية عن طبعه في حالتي اللين والشدة :

أما التشبيه بأنواعه المعروفة ، فلم يكن اقل تأثيراً في الأساءة الى فنه الشعري، لانه لم يوضع في موضعه الذي هوله، ولم يبن على اساس ماسند اليه من إيحاء واثارة . من ذلك قوله :

والخصر مـثـل هـلال والقوام حـكـى غصـنـاً يميـلبردف مثـل كثبـان (٢)

وهو تشبيه بالأ داة ، ويجيء احيانا بغير أداة مصاحبا التشبيه بالأداة كمثل قوله :

جبينه الفجر والشعر والدجى ولـه وجه جـمـيـل كمثل التـم نـورانـي

وكقوله وفي تشبيهه أداة :

وان تثنت كغصـن البـان قـامـتـهـا فـلـيـتـنـي لتثني عطفهـا ثـان

وقولـه بغير اداة

ان كان دمعي من الأجفان فاض دمـاً فالدمع دمعي والأجفان اجفـانـي(٣)

ويلاحظ في البيت تكرار لفظة (الدمع) ثلاث مرات ومثلها لفظة (الأجفان) ، ومرتين في لفظة (تثنت) وهو ماساء الى معناه .

---

(١) نفسه ورقة /٣٠٠

(٢) نفسه ورقة /٣٢٠

(٣) نفسه ورقة /٣١٨، ٣١٩

ولايجد الباحث لشعر عبدالله باشعالم أية صعوبة في تقصي الوجوه البلاغية ولكنه سيجد الجانب الشكلي يقضي على بهاء الفن الشعري بما حشر فيه الشاعر من الوان خرجت عن طبيعتها الصحيحة فاستحالت بذلك الى الفاظ ميتة فقدت وظيفتها الجمالية .

* * * * *

بقي ان نشير اخير الى الموشحة الوحيدة التي ضمنها عبدالله باشعالم ديوان شعره في موضعين ، ولهما يبدأ بالصفحة ٢٥٩ —٢٦٣ ،ويتكون من سبعين بيتا،وثانيهما ورد في ص٢٦٥—٢٦٦ مكرراً منه ماجاء على قافية الحاء فقط باثنين وعشرين بيتاً فقط . في حين ورد قافية حرف الحاء في الموشحة الكاملة في ثلاثين بيتا كاملا . ومعنى هـذا ان ماورد من الموشحة في صفحة ٢٦٥ — ٢٦٦ قد تكرر في اثنين وعشرين بيتاً من اصل ثلاثين ورد مع أصل الموشح الكامل .

ويبدو ان ناسخ الديوان لم ينتبه الى هذا الغلط الذي وقع بعض الدارسين فيه ايضاً .

يتألف موشح باشعالم من سبعين بيتاً يبدأ بقوله :

أيهـا الساقي تنبه ان نجم الأفق طاح
وظلام الليل أدبر وضياء الفجر لاح
فأدر كأس الحميا واسقني ياصاح راح

ويقوم مضمون الموشح على ثلاثة موضوعات هي الغزل ووصف الخمرة والطبيعة .وهذه الموضوعات — كما اسلفنا القول فيها — قد تقاطعت في عدد كثير من قصائد الشاعر ، حتى كادت تشكل وحدة موضوعية فيه والحق ان هذه المحاور الثلاثة ، في مضمون الشعر العربي وربما الشعر العالمي هي موضوعات في موضوع رئيس واحد لان وصف الخمرة لايطيب عند الشاعر الا في ظل الطبيعة ، ولايجمل الحديث عن الحب الا في كنف هذين الموضوعين ويجيء في معظم الشعر العربي وصف الخمرة مع وصف ساقيها الذي هو لمحبوب احيانا . ولاتكتمل هذه الصورة الافي احضان الطبيعة التي تضفي على الشاربين ، وسقاتهم جوانفسيا لايتحقق الا بها .

ولذلك صار طبيعيا ان ترتبط معاني الخمرة بمعاني الغزل ومظاهر الطبيعة . وقد حققت موشحة باشعالم هذه الوحدة وعلى الرغم من قصور الجانب الفني في معظم شعر الشاعر، لغلبة الجانب الحسي عليه ، الا ان هذه الموشحة على طغيان هذا الجانب ، قد وفرت الجانب المعنوي ، اوعلى اقل تقدير قد خففت من قسوة الجانب الحسي في بعض صورها ، كمثل قوله في وصف ، أثر الحبيب في العشق .

فتن العشاق حسنا كلما ماس وماح
بتثنٍ واعتدال.. ..كغصون ورماح
جلنار الخد أورى في فؤادي جلّ نار
وعيون الحب سكرى هي من غير خمار
كيف أسلو عن حبيب أخذ العقل وراح

ولم يأت وصف الطبيعة أقل اثارة وجمالا ، كقوله :

ماترى الأزهار تزهو بين آس وخزام
وطيور الأيك تشدو من هزار وحمام
وغدا النرجس يرنو بعيون لاتنام
وشقيق الروض فتح وشذا النسرين فاح
ونثار النهر طرز وجنة النهر وساح (١)

ولاشك في ان الشاعر قد حقق في موشحته اليتيمة هذه ، العديد مما يتطلبه هذا الفن الأندلسي الذي فتن به اهل المشرق فنظم فيه شعراؤهم وعارضوه واجادوا فيه . فقد وفر الشاعر له قدراً مقبولا من صفاء اللغة ورقة العبارة وجمال الموسيقى ورشاقة الوزن ، وتلك صفات قلما نجد لها مثيلا في موضوعات شعره الأخرى .

(١) الديوان : ورقة /٢٥٩ – ٢٦٣

ومن طريف الصدف ، القول ان شعراء هذه الفترة الذين نظموا الموشح ، قد حققوا في نظمه قدراً مقبولا من متطلباته الفنية ، كما حققوا فيه الأجواء المعنوية والنفسية ، في حين أخفقوا في تحقيق هذه المتطلبات في فنونهم الأخرى .

ونذكر على سبيل المثال ، ماحققه الشاعر عبدالباقي العمري — وهو من اشهر شعراء هذا العصر— في موشحته التي عارض فيها موشحتي ابن سهل وابن الخطيب الأندلسيين ، والتي فضلها محمد مهدي البصير على معاني الموشحتين . (١) .

---

(١) انظر : الموشح في المشرق وفي المغرب — محمد مهدي البصير / ٤٦ بغداد ٩٤٨
عبد الباقي العمري — حياته وأدبه :سالم الحمداني /٢٣٤ — ٢٣٩

مراجع البحث

الأدب العربي الحديث — دراسة في شعره ونثره سالم الحمداني وفائق مصطفى — الموصل ١٩٨٧ .

التجديد في الأدب — ابراهيم الوائلي بغداد ١٩٧٩

ديوان عبدالله باشعالم — عبدالله باشعالم مخطوط

ديوان الموشحات الموصلية — محمد نايف الدليمي الموصل ١٩٧٥

الشعر العربي المعاصر — عزالدين اسماعيل بيروت .ب . ت

الصورة الشعرية — دي لويس. ترجمة احمد نصيف الجنابي بغداد ١٩٨٤

الصورة في القصيدة العراقية الحديثة — عناد غزوان — الأقلام ١٩٨٦

العقاد ناقداً — عبدالحي ذياب القاهرة ١٩٦٥

لغة الشعر الحديث في العراق — عدنان حسين العوادي بغداد ١٩٨٥

مداخل الى علم الجمال الأدبي — عبدالمنعم تليمه القاهرة ١٩٨٧

فن الوصف في الشعر العراقي — محمد حسن علي مجيد رسالة دكتوراه بغداد ١٩٨٥

الوصف وتطوره في الشعر — ايليا حاوي بيروت ١٩٨٠ ط٣